أمي الشهيدة ..

أ تعرفون ؟،
فيم أمي الشهيدة عانت أرق الليالي ؟!..
وفاض دمع عينيها دوالي ؟!..
ألقى عليها الحزنَ أشباحُ !،
ونحن الصامتون ،
الصابرون ،
جراحُ ؟!.

أ تعرفون ؟!..
كم احتملت قهر السنين ظلما ؟!،
وصارعت طغاةً ملؤوا دربنا سُمّا ؟!..
حتى فرشتْ لنا حلما !،
وأملتْ قراطيس ،
وقالت ، ارسموا الشمس ،
اكتبوا كلمة !.

أ تعرفون ؟!.
كم أجرتْ لنا قارباً ؟،
وخبّأتْ لنا الفجر في ليلنا السّاجي شراعا ؟!،
ورمت للأفق مجاذيفَ !،
ورشّت رؤىً ،
وقلباً شعاعا
مدّت لنا الحبَّ ، والسّلام وداعا .

أ تعرفون ؟!.
صامت عن الشهوةْ !..
أمضتِ عمراً لها في خلوةْ !،
علّقتْ لنا كوكبين ، جرّت لنا ثروةْ ،
وإذما الخطبُ حلَّ استمطرت لنا السماء ،
خاطبت شمساً ، لمّت خيوط القمر ،
لطير حطّ ، وطير عبرْ ،
جذلى بدفق الحياة ،
ولهى بضحك البكاءْ ،
بدمعِ المطرْ .

أ تعرفون ؟!..
ماقالت في وصيّةْ ؟!..
كان أبي ضحيّةْ !..
لجلاله ، انتصبت أمام مثواه دامعةً أبيّةْ ،
رسمتْ رعشةَ الشفتين سلاما !.
لم تَفُهْ كلاما !،
رشّت كمشةَ حبِّ ،
وهمساً هياما .

أ تعرفون ؟!،
كم طرقعت على أناملها حباتُ سبحةٍ ؟!،
ألبست ألوانها أسماءا ،
فما عرفتُ ، هل كان ذاك دعاءا ؟!.
أم لأني في لا مكان قصيٌّ ؟!،
أم لحرفِ وافقَ اسم النبيّ ؟!،
بازغاً لها صبحاً ،
آفلاً عند العشيّ ،
أشلاءا ؟!.

أوَ تعرفون ؟!..
كم خاطبتْ نجماً ،
ونادت موجَ بحر عتيّ !.
ترنو بعيداً لرسم دارس في همسٍ إليٌّ ،
تجاذب أطراف الحديث طيفاً ،
والصمتُ النّديُّ يلقي ظلالاً من شغفِ سخيّ !.
تبثّه حزناً مديداً إلى شعاعٍ قصيٌّ ،
إلى الشمس ،
في رقص سرابٍ بهيٌّ !.

أ تعرفون ؟! ،
كم شاخت في قامةٍ عليلْ ؟!.
ذابت لها عيون ..
لاحت أنداف غيم مرميّ في شمسُ الأصيلْ ،
رستْ على متن العصور محضَ أيامٍ خلتْ ،
وما جنتْ إلاّ صدىً ،
من سُباتٍ ونورْ !..

أ تعرفون ؟!.
كم على خطاها فاح الزيزفون ؟!،
ولوى حصى الدرب ،
ورفّ النسيمُ ذكرى لطيفٍ خَطَرَ في ضوء القمرْ ؟!.
فضوتْ على رصيف قلعتنا حدادا ،
تحكي عن ماضٍ وقادةْ ،
يوم كانتِ الآمالُ عريضةً ، والأيامُ ودادا ،
كان الحب للناس وسادةْ !.
كانوا لنا خدماً ،
كنا لهم سادةْ .

أو تعرفون ،
في ضحىً ، روت لنا حكاية حلم جميل ،
أقصوصةً من أساطير !،
جملةْ إثرَ جملةْ ،
كما لو دقّت على الأسوار شعلةْ !..
رسمت للريح سِحاباً ، للدار غصنَ دُفلى .
جعلت لنا أملاً ،
وغداً أحلى !.

قالت ،
لو سحابة بيضَاء خانت حلم العصافير يا صغاري !،
وحطمت أعشاشها ،
والمكانُ بعيدٌ ..
والزمانُ شديدٌ ..
فما نفع البشر ؟!، دقّت أجراس الخطرْ !،
فما مضى بعض عهدٍ ،
حتى حطّ الخبرْ !.

أ تعرفون ؟!،
وانتبهنا لجرح في حزن القصيدةْ ،
واكتسى المغيب ثوباً جديداً
فمالت قاماتنا وجداً ، وطرقعت أقدامنا طرقاً حديدا ،
وجمعنا لها الأيدي ، صدحنا صراخاً مديدا :
أمي الشهيدةْ !.
أمي الشهيدةْ !..

_____

بيروت 5/4/2003
مصر 26/3/2012